

الاستعمار الإنجليزي وتقويض الهوية الوطنية المصرية (اللغة - الدين - الثقافة)

علا عبد الله خطيب محمد^١

تمهيد

كانت الهوية العربية الإسلامية هي الهوية التي تشكلت منها الذاكرة المصرية، ومثلت شخصيتها الحضارية. وقد فطن المستعمر الإنجليزي إلى هذا الأمر، فعمل على إخراج المصريين من هويتهم الإسلامية عن طريق إدخال عناصر غريبة على تلك الهوية لتحويلها عن طبيعتها ووجهتها على نحو يقضي على تميزها الخاص، فعمد إلى استهداف المكونات الأساسية للهوية المصرية، والتي تمثلت في مكونات ثلاثة أساسية هي: اللغة العربية، والدين الإسلامي، والثقافة الإسلامية. حتى يتسنى لهذا المستعمر إخضاعها وتحويلها إلى مستعمرة إنجليزية أبدية تظل ما بقيت الدنيا تابعة له.

يطرح البحث مجموعة من الأسئلة هي التالية: ما الهوية؟ وما هي مكوناتها؟ وكيف عمل الاستعمار على تدمير هذه المكونات؟ وكيف عمل على النيل من اللغة العربية بمخططات شتى؟ وبمن استعان من أبناء مصر؟ وكيف حاول الاستعمار النيل من القيم الدينية الأصيلة التي ارتبطت بها شخصية الشعب المصري في وجودها واستمرارها؟ جرى تقسيم هذا البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة؛ تناولت المقدمة أهمية

١. كاتبة متخصصة في التاريخ السياسي - مصر.

البحث، وتساؤلاته، ومبرراته، ومباحثه. في حين جاء المبحث الأول تحت عنوان: مفهوم الهوية بوصفه هدفاً استعماريًا. أمّا المحور الثاني فقد جاء تحت عنوان: الاستعمار واللغة. أمّا المحور الثالث فتناول موضوع: الاستعمار والدين. وجاء المحور الرابع بعنوان: الاستعمار والثقافة. لترصد الخاتمة أهمّ نتائج البحث.

أولاً مفهوم الهوية بوصفه هدفاً استعماريًا

حاول المُستعمر الإنجليزي في كافة البلدان التي استعمرها^١ أن يجمل من صورته القميّة من خلال إشاراته إلى تركه أصداء تطور أو لمحات ازدهار هنا أو هناك. والتي لم تكن -في الحقيقة- إلّا لرفاهية أفراده ودعم مواطنيه الأصليين الذين يقومون على رعاية شؤون الاحتلال. وقد عبّر الزعيم المصري مصطفى كامل عن ذلك خير تعبير حين قال في حقّ الاحتلال الإنجليزي: «لا يغرتكم من المحتلّين نعومة الملمس، فقد يغلب عليهم زبانية الجحيم»^٢.

وبالرغم من مخادعة مفهوم «الاستعمار» الذي اشتقّ في معناه اللغوي من الإعمار والعمران، أي ما يعمر به البلد ويصلح به حاله بواسطة الاهتمام والارتقاء بالزراعة والصناعة والتجارة وكافة أعمال التمدّن والتحضّر. يبقى الاستعمار -مهما تغيّرت أشكاله وألوانه وادّعاءاته المظهرية- هو الاحتلال والاستيلاء القهري للبلاد المُستعمرة، وتبقى المُستعمرة إقليمًا يحكمه أجنبيّ محتلّ يقوم باستغلاله اقتصاديًا وعسكريًا، ويسلك في سبيل ذلك كافة السبل، من إذلال وإفقار وتجهيل وتعتيم وتغريب، وما إلى ذلك من الوسائل والآليات التي تجعله خاضعًا مطيعًا، وتابعًا سهل الانقياد. ومن ثمّ تبقى كلمة استعمار، كما يقول مالك بن نبي: «هي أخطر سلاح يستخدمه الاستعمار، وأحكم فخّ ينصبه للجماهير، وما من خائن يدسّه الاستعمار في الجبهة التي تكافح فيها الشعوب

١. احتلّت إنجلترا بلاد البنغال عام ١٧٥٧م واحتلّت البنجاب عام ١٨٤٩م ثمّ احتلّت نيجيريا عام ١٨٥١م، وزنجبار عام

١٨٧٠م ثمّ جزيرة قبرص عام ١٨٧٨م، وفي عام ١٨٩٨م احتلّت السودان ثمّ العراق عام ١٩١٩م ثمّ الأردن في عام ١٩٢٠م.

٢. عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩م)، ص ٤٣٨.

المستعمرة، إلا وكلمة استعمار تفتح له أبواباً مغلقة في عواطف الجماهير^١. وقد كان طمس هويّات تلك الشعوب المُستعمَرة أحد أهمّ هذه الوسائل وتلك الآليات التي حرص عليها المُستعمر بصفة عامّة والمُستعمر الإنجليزي بصفة خاصّة؛ لإحكام سيطرته وبسط سلطانه على مستعمراته؛ لأنّ تغييب هويّة هذه الشعوب المحتلّة تجعلها مسخّاً للمحتلّ وتابعاً له، وتسهّل له عمليّات سلب الأوطان، ونهب ثرواتها دون أدنى مقاومة تنتج عن الغيرة على الذات التي ضاعت، أو الهوية التي مُسخت أو أُتلفت مكوناتها جزئياً أو كلياً. وقد كان طمس الهوية المصريّة أهمّ أهداف الاستعمار الإنجليزي، وعلى رأس الأولويّات منذ البداية؛ إذ إنهم كانوا ينوون نيّة لا شكّ فيها أن يكون احتلالهم لمصر أبديّاً، بالرغم ممّا أذاعوه في أوّل الأمر من أنّ هذا الاحتلال مؤقت، وليس لهم مآرب سوى استتباب الأمن في مصر، وتثبيت عرش الخديوي^٢.

ولم يكن هذا خاصّاً بالاستعمار الإنجليزي دون غيره -كما سبقت الإشارة- إنّما كان دأب المستعمر الأوروبي بصفة عامّة مع كلّ الأمم التي استعمرها؛ فما من مُستعمرٍ إلاّ وقصد جاهداً إلى محو هويّة القطر المُستعمر وتشويه رموزه ومعالمه. وهذا ما يفسّر حرص المُستعمر من أوّل يوم تطلّأ قدمه الأرض المُستعمَرة على أن تسود هويّته في البلاد التي يستعمرها. وقد يساعده في ذلك ظروف وعوامل شتى لعلّ أهمّها على الإطلاق زهوة المنتصر الذي يبدو صاحب الحضارة الأقوى والأجدى والأأنفع. فأمام مرارة الهزيمة يتمّ فقدان الثقة في كل ما هو ذاتي، وتفقد الذات تحت قهر المنتصر كلّ ثقة في موروثاتها، وتقع في دوامة التلذذ بجلد الذات والتشكيك في كل ما بقي لديها من موروثات، وتتطلّع نحو المنتصر لتسلك مسلكه لعلّها تحوز أسباب القوّة كما حازها. ومن ثمّ يسهل طريق المُستعمر إلى تحقيق هدفه، فيسلطّ سهامه المسمومة إلى الهوية الوطنية بغية طمسها والقضاء عليها. لكنّ السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: ما هي الهوية؟ وما هي مكوناتها؟

١. بن نبي، مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص ٢٨.

٢. إبراهيم، شحاتة عيسى، الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، ص ٥٤.

يجب أن نأخذ في الاعتبار أن مفهوم الهوية مفهوم معقد على العكس تمامًا مما يبدو عليه للوهلة الأولى كمفهوم بسيط ومحدد، لأنه مع البحث الدقيق يبدو تهافت بساطته المظهرية، وذلك لتشعبه وانتمائه لعدة علوم إنسانية واجتماعية مختلفة المنهج والمعالجة. الأمر الذي يبدو معه مفهوم الهوية مفهومًا متنوع الدلالات والاصطلاحات؛ حيث يتناول كل علم من منظوره الخاص. وهو ما يقرره أليكس ميكشيللي (Alex Mucchielli)، في مقدمة كتابه عن «الهوية»، حيث يقرر أن «مفهوم الهوية يوظف في مجال العلوم الإنسانية كمفهوم شمولي، على نحو متزايد وفقًا لدلالات مجازية بالغة التنوع»^١. ويفرق حسن حنفي بين مفهوم «الهوية» ومفاهيم أخرى تتداخل معه، مثل «الماهية» و«الجوهر»؛ ويرى أن الهوية تتميز عنهما -رغم انتمائهم جميعًا لجذر معنوي واحد وهو الأصل- بأنها خاصة بالإنسان والمجتمع، فهي موضوع إنساني خالص، فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، بين الواقع والمثال، بين الحاضر والماضي، بين الحاضر والمستقبل. وهو الذي يشعر بالفصام، وهو الذي تنقلب فيه الهوية إلى اغتراب. الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون على غير ما هو عليه. فالهوية تعبر عن الحرية، الحرية الذاتية. إن وجدت فالوجود الذاتي، وإن غابت فالاغتراب^٢.

وبالرغم من ذلك يمكننا القول إن الهوية هي ما يحقق الأنا ذاتيًا ويميزها عن غيرها، وهي شيء أصيل في الوجود الإنساني، فمن يفقد هويته يفقد قدرته على الوجود الذاتي الأصيل، ويشعر بالعدم والخواء والفراغ، ويسهل تشكيله كي يكون أداة لخدمة من يملك زمام قيادته، فيصير تابعًا مُنقادًا، وينتهي الأمر بهلاكه وانذاره.

أما مكونات الهوية فهي تتكون حسب الرؤية الكلاسيكية من دعائم أو مكونات ثلاثة كبرى هي: اللغة، والدين، والثقافة. وإن كانت الباحثة لا تنكر وجود دعائم أخرى تقوم

١. ميكشيللي، أليكس، الهوية، ص ١١.

٢. حنفي، حسن، الهوية، ص ١١.

عليها هوية أيّ أمة من الأمم كالتاريخ المشترك ووحدة العادات والتقاليد وغيرهما، إلا أنّ الباحثة ترى أنّ هذه الدعائم الثلاث هي الأكثر أهميّة ومحوريّة، والتي يكون عليها إجماع من المتناولين لمفهوم الهوية بمعناه العام، وفي فلکها -أيضاً- تدور الدعائم الأخرى التي يمكن من خلالها تحديد هوية أيّ أمة. كما أنّها الأكثر تعرّضاً لهجمات المُستعمر في حربه لطمس الهويّات الوطنيّة. وهو الأمر الذي يفسّر لنا ما قامت به إنجلترا عقب احتلالها لمصر؛ إذ أرسلت ثلاثة أرباع المبعوثين إلى إنجلترا انصرف ٦٥٪ منهم إلى دراسة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة^١. وهي العلوم الذي تتناول اللّغة، والدين، والثقافة؛ حيث يكون هؤلاء المبعوثين عوناً لها في نشر ثقافتها ولغتها وفرض هويّتها.

وقد بدأ صراع الهويات في مصر عام ١٩٠٦م، حيث عمل السير إفلن بارنج (اللورد كرومر) المندوب السامي البريطاني والحاكم الفعلي لمصر على تشجيع مجموعة من المصريّين على الترويج للقطريّة المصريّة، وتمجيد الرموز الفرعونيّة، وإثارة اعتزاز المصريّين بأصلهم الفرعوني، وذلك في مواجهة الهوية الإسلاميّة التي تبناها الحزب الوطني (مصطفى كامل)، والهوية القوميّة العربيّة التي تبناها حزب الإصلاح على المبادئ الدستوريّة. وقد شجّع المندوب السامي البريطاني ما كان يطلق عليهم أصحاب المصالح على إنشاء حزب الأمة، وإصدار جريدة (الجريدة) التي رأس تحريرها أحمد لطفي السيّد. وهذه الجريدة كانت تبالغ في تمجيد الفرعونيّة، كأساس لهوية المصريّين، وتربط ذلك بالتحالف مع الإنجليز، باعتبار أنّه ليس هناك مشكلة في تبعيّة مصر الفرعونيّة لبريطانيا، وقطع علاقتها بالدولة العثمانيّة وبالإسلام^٢. وسوف نتناول جهود الاستعمار لتدمير كافّة مكونات الهوية المصريّة أو النيل منها على كافّة المستويات.

١. تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩م)، م. س، ص ٤١٧.

٢. صالح، سليمان، قصة الهوية التي حاول الإنجليز فرضها على مصر..!، مقال إلكتروني منشور بتاريخ: ٢٦/٣/٢٠٢٤،

وتمّ الدخول عليه في: ١٢/٩/٢٠٢٤، على الرابط التالي:

ثانياً: الاستعمار واللغة

تعدّ اللغة -عند الكثيرين- بمثابة الدعامة الأمّ التي تقوم عليها الهوية، حيث يُنسب الإنسان للوهلة الأولى -في غالب الأمر- إلى لغته، فيقال: عربي أو إنكليزي أو فرنسي أو صيني أو ياباني حسب اللغة التي يتكلّمها؛ ولذلك كان الشغل الشاغل للاحتلال الإنكليزي -بعد أن اطمأن إلى مركزه الدولي بعد توقيع اتفاقية «الاتفاق الودي» في ٨ أبريل عام ١٩٠٤م الذي يضمن ألاّ تعارض إنجلترا مدّ نفوذ فرنسا إلى مراكش مقابل ألاّ تعارض فرنسا بقاء إنجلترا في مصر- أن تمحو لغة هذه البلاد الأصليّة وتحلّ محلّها الإنكليزيّة، وهو الأمر الذي حاولته أيضاً إيطاليا في ليبيا، وفرنسا في تونس والجزائر، وإسبانيا في بعض أجزاء من المغرب. ولولا جهود التعريب التي قام بها المخلصون من أبناء الأمة العربيّة لمواجهة «الفرنسة» و«النجلة» لضاعت الدعامة الأمّ التي تقوم عليها الهوية. وإن كان هذا لا يمنع نجاح تجارب المستعمر في تغييب الهوية لكثير من البلدان، كما فعلت بريطانيا في جنوب أفريقيا وغينيا الاستوائية ونيجيريا والهند، أو فرنسا في دول الغرب الأفريقي (الدول الفرنكفونيّة)، وإسبانيا في الفلبين، وهولندا في أندونيسيا... إلخ.

فما كاد الأمر يستتب للإنجليز في مصر حتى أسند اللورد كرومر (الحاكم الفعلي لمصر) وظائف التدريس في المدارس إلى الإنجليز دون المصريين، وشرع دجلاس دنلوب (Douglas Dunlop) -الذي عينه كرومر مستشاراً للتعليم- في تطبيق سياسة «النجلة»، فقصر التعليم في مصر على الأهداف التي ترمي إليها إنجلترا، وعمل على زيادة عدد المدرسين الإنجليز في المدارس الابتدائيّة وما فوقها، وجعل اللغة الإنكليزيّة هي اللغة الأولى في المدارس، وهكذا ضمنت إنجلترا تفوق اللغة الإنكليزيّة في دوائر الحكومة على حساب اللغة العربيّة^١.

وما زال الأوروبيون (المستعمر القديم) يحرصون اليوم على إنشاء جامعات أوروبيّة

١. تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩م)، م. س، ص ٤١٨.

في البلاد (المستعمرات القديمة) لينشروا لغاتهم وثقافتهم، بل فتحو جامعاتهم أمام الدارسين القادرين مادياً والتميّزين علمياً، لخلق جيل جديد يمثل لغاتهم وثقافتهم في تلك الأقطار، حتى صار الحديث باللغات الأوروبية مدعاة للفخر في سائر هذه البلاد، وهو الأمر نفسه الذي قام به الاحتلال الإنجليزي عندما فرض حمايته على مصر؛ إذ أهمل التعليم وضمّ عليه بالأموال وجعله بمصروفات عالية بعد أن كان بالمجان، وحصره في فئة قليلة، وقصر أهدافه على مجرد تخريج موظفين للدولة، وإخضاعه لمجموعة من النظم والقواعد الصارمة التي ابتدعها «دنلوب»، والتي أمات روح الابتكار، ونشأت الأفراد على الخضوع والاستسلام. وليس أدلّ على إهمال الإنجليز لشؤون التعليم من أنه بعد مضي أربعين عاماً على الاحتلال كانت نسبة الأمية في مصر لا تقل عن ٩٢٪ من البنين، و٩٧٪ من البنات^١.

ولذلك كانت اللغة -من وجهة نظرنا- من أهمّ مكونات الهوية الوطنية للشعوب، ليصبح تدميرها بالتالي أهمّ أهداف الاستعمار وسبباً لطمس الهوية الوطنية للشعب المحتلّ، فالمستعمر الإنجليزي وهو في طور إحكام سيطرته على مصر حاول بكل السبل التقليل من شأن اللغة الوطنية، وإظهارها بأنها لغة رجعية متخلفة غير ملائمة للتطور والتحديث والمعاصرة. في مقابل إضفاء الحداثة والمعاصرة والعظمة والقوة على لغته بوصفها السبيل الوحيد للتقدم والتطور كي يغري الشعب المصري بالانصياع لمخططاته. ويسعى لتحقيق ذلك من خلال صنائعه وعملائه المخلصين من أبناء هذه الأوطان، ومن خلال المناهج والمؤسسات التي يُنشئها، فإيضاً إياها بكلّ قوّته الممكنة. وقد قام بعض صنائع الاستعمار وعملائه بدورهم على أكمل وجه، فقدّموا لغة المستعمر على أنّها اللغة الأفضل، ورمز التحضّر ومفتاح التطور، ولا سبيل إلى الولوج إلى حياة التحضّر والرفق والمدنية إلاّ بها. وقد لعب الإنجليز في مصر دوراً كبيراً في نشر اللغة العامية وذلك عن طريق العديد من الصحف ونشر عشرات الكتب التي تروّج للهجة العامية المصرية، لطمس الهوية العربية وتمزيق وحدتها الفكرية عن طريق محاربة اللغة الفصحى التي تجمع بين الأقطار العربية^٢.

١. القوصي، عطية، وآخرون، الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، ص ١٤٤.

٢. نصار، عصمت، فكرة التنوير بين لطف السيد وسلامة موسى، ص ١٣٨.

وهنا يجدر بنا أن نذكر ذلك الدور الذي لعبه عملاء الاستعمار الإنجليزي لأداء الدور المطلوب في هدم اللغة العربية، وما أكثرهم عددًا في مصر، فبسط الهيمنة الاستعمارية لا يتّجه أولًا إلى عامة الناس، وإنما إلى نخبهم المثقفة، فهم الذين يتحولون إلى أدوات تخدم المستعمر، فالنخب وحدها هي القادرة على التعبير والكتابة ومن ثم الذبوع والانتشار. ويكفي هنا أن نذكر ذلك الدور الذي لعبه سلامة موسى في مصر كأنموذج لمحاولات نفس اللغة العربية. وإن لم يكن سلامة موسى هو الوحيد، بل شاركه كثيرون من أمثال قاسم أمين وأنيس فريحة وحسني العرابي وعبد الله جول وإسماعيل أدهم وإبراهيم مصطفى وحسن رفقي وغيرهم ممن تطول بهم القائمة، من الذين ساروا على الطريق الذي رسمه المستشرقون بصفة عامة من أمثال المستشرق الألماني (ولهلم سبيتا) الذي شغل منصب أمين دار الكتب المصرية في كتابه «قواعد العربية العامية في مصر» والذي نشره باللغة الألمانية عام ١٨٨٠م وفيه ذهب إلى أن علة ركود الثقافة في مصر وابتعاد أهلها عن العلم ترجع في المقام الأول إلى لغتهم الفصحى الموروثة، التي تقف حائلًا بينهم وبين التطور؛ لذا اقترح أن تحلّ العامية محلّ الفصحى، وأن تستبدل حروفها بالحروف اللاتينية^١.

وقد سار الإنجليزي على الطريق الذي رسمه «سبيتا» بدقة، وتحمّس له الكثير منهم من أمثال اللورد «دوفرين» السياسي الإنجليزي، ومهندس الري الإنجليزي «ويلكوكس» والقاضي الإنجليزي «ولمور»... وغيرهم. فقد عمل هؤلاء جميعًا على إيصال رسالة محددة فحواها: إنَّ علة ركود الثقافة في مصر وابتعاد أهلها عن العلم ترجع في المقام الأول إلى أنّ لغتهم الفصحى الموروثة لغة جامدة تعجز عن مواكبة التطور والتعبير عما استجدّ من أمور علمية ما أكثرها، ولا بدّ من تدارك هذا الأمر إذا أراد المصريون أن يلحقوا بركب التطور والحضارة.

وتابعهم في ذلك الكثير من العملاء أو من المخدوعين بالدعوة من أمثال أحمد لطفي

١. الجمعي، عبد المنعم، مجمع اللغة العربية، ص ١٨.

السيد وقاسم أمين وأحمد أمين وغيرهم. لتصبح محاولات سلامة موسى هي الأبرز والتي تستوفي كلّ شروط المستعمر الإنجليزي لنسف أهم دعائم الهوية العربية ألا وهي اللغة. وتكمن هذه الدعوة في ثلاثة محاور، هي:

أ- إلغاء النحو وهجر القواعد اللغوية

رأى سلامة موسى وقاسم أمين وأنيس فريحة وغيرهم أنّ مآزق اللغة العربية يكمن في النحو وقواعده الكثيرة المعقّدة، والذي يمثل عقبة كبرى أمام المتعلّمين لها؛ ولذلك فلا مانع من إلغائه. ومن ثم يقول سلامة موسى: «ولهذا السبب يجب أن نقتصر من تعليم اللغة العربية في مدارسنا الابتدائية على تمكين الطالب من المطالعة والفهم، بلا حاجة إلى أي قواعد نحوية، وليس عليه حرج أن يقرأ فيرفع المفعول وينصب الفاعل، مادام يفهم ما يقرأ. حسبه أن يسكّن آخر الكلمات كما نفعل نحن حين نقرأ، وبدلاً من هذه القواعد النحوية يجب أن يتعلّم الصبي أكبر مقدار مستطاع من الكلمات... أما في المدارس الثانوية، فنشرع في تعليم أقل ما يستطاع من قواعد النحو، ولا نُبالِي الإعراب الذي أثبت الاختبار أنه لا فائدة منه بتاتاً»^١؛ ولذلك لم يكن غريباً أن يُثني موسى على محاولة كل من قاسم أمين وأحمد أمين من خلال دعوتهما إلى إلغاء الإعراب.

واقترح سلامة موسى وحسن الشريف عدّة مقترحات لإصلاح اللغة الفصحى - وهي اقتراحات تهدف في الحقيقة إلى نسفها لا إلى إصلاحها، وتتمثّل هذه المقترحات في: إلغاء الألف والنون من المثني، والواو والنون من جمع المذكر السالم، وإلغاء التصغير، وإلغاء جمع التكسير كلّهُ والاكْتفاء بالألف والتاء لغير المذكر السالم، إلغاء الإعراب - كما سبق أن بيّنا - والاكْتفاء بتسكين آخر الكلمات، ورسم حرف كبير عند ابتداء الجمل تأسياً بما يحدث في اللغات الأوروبية، وعدم ترجمة الألفاظ الأوروبية والاكْتفاء بتعريبها كأن نقول (بسكيلت) ولا نقول دراجة^٢.

١. موسى، سلامة، البلاغة العصرية واللغة العربية، ص ١١٣-١١٤.

٢. فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، م. س، ص ١٦٥.

ب- إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربيّة

رأى أنصار هذا الفريق، ومن أبرزهم عبد العزيز فهمي وسلامة موسى أن الخطوة الثانية التي يجب اتخاذها لإصلاح اللّغة الفصحى هي: إحلال الحروف اللاتينية محلّ العربيّة، ورأى أنّ من أهم مظاهر تخلف مجمع اللّغة العربيّة تبدو في تمسّكه بالحروف العربيّة في الكتابة ذات الرسم المضللّ، تلك الحروف التي تُعدّ في رأيه عاجزة عن توصيل النطق السليم للمصطلحات العلميّة الأوروبيّة الحديثة إلى من يقرأها. ورأوا أنّ في اتخاذ الحروف اللاتينيّة مظهرًا من مظاهر الرقي والتمدّن، وخطوة إيجابيّة نحو اللحاق بركب الحضارة العلميّة الحديثة. بل ونقله من طور البداوة إلى طور العمران، الأمر الذي من شأنه فضّ النزاع بين الشرق والغرب، والانفتاح على الثقافة العالميّة والانخراط فيها. كما قرّروا أنّ هناك عدّة ميزات أخرى في استخدام الخط اللاتيني، كالتوحيد البشري؛ حيث يصبح هو خط القراءة والكتابة الوحيد لدى جميع الأمم، التي تنتج العلم وتمتلكه، والتي تنتفع به وتتعلّمه. ويزول الانفصال النفسي بين الشرقيّين والغربيّين. وتزيد القدرة على استحداث كلمات جديدة بالحاق بعض المقاطع إلى بعض الكلمات، ولا يكون ذلك في الخط العربي. بالإضافة إلى سهولة استعمال الكلمات العلميّة دون حرج، وفتح آفاق جديدة أغلقها استخدام الحرف العربي، لكنها تفتح باستخدام الخط اللاتيني، هذا فضلاً عن أنّ سرعة تعلّم الخطّ اللاتيني يُقدّر بعُشر الوقت الذي يستخدمه تعلّم الخطّ بالحرف العربي^١. ومن ثمّ أخذ عبد العزيز فهمي في الإشادة بالتجربة التركيّة التي كان لها فضل السبق في تحقيق اتّخاذ الخطّ اللاتيني لكتابة اللّغة التركيّة.

١. فهمي، عبد العزيز، تيسير الكتابة العربيّة، ص ٥-٧. وانظر أيضًا: فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، م. س، ص ١٦١.

٢. انظر: البلاغة العصرية واللّغة العربيّة، م. س، ص ١١٧-١١٨.

ج- الدعوة إلى استخدام اللغة العامية

نجح الاحتلال البريطاني في أن يجعل أنصاره يواصلون دعواتهم على صفحات مجلتي «المقتطف» و«الهلال» إلى مناصرة اللغة العامية، وجعلها اللغة الرسمية بدلاً من الفصحى؛ لكونها لغة الناس في المعاملات اليومية، وهي الأكثر فهماً من الجميع، وأنها أوفى تعبيراً، وأدق معنى، وأحلى ألفاظاً؛ الأمر الذي يجعلها أجدر من الفصحى في أن تكون هي اللغة الرسمية، حيث إن اللغة الفصحى تبدو كلغة الكهان في المعابد القديمة لا يستطيع فهمها عامة الناس فضلاً عن بعض الخاصة الذين لم يتلقوا تعليماً لغوياً متخصصاً. وأكد كل من سلامة موسى ونصرة سعيد أن اللغة الفصحى لغة جامدة، وأن مصيرها إلى الموت، وإنها تعمل على تفكيك وحدتنا القومية المصرية، وتجعل منا أتباعاً لثقافة مريضة، وهي الثقافة العربية الشرقية^١.

ورأى سلامة موسى أن اللغة الفصحى مثقلة بقواعدها ومفرداتها التي تجعل من تعلمها أمراً صعباً، فضلاً عن عجزها عن تأدية أغراضنا الأدبية، فتعليم الطب بالعربية كارثة. أما اللغة العامية فيها تقوم الدراما التي لا تقوم على الفصحى إلا في أضيق الأحيان، وبها تتحقق هويتنا المصرية؛ إذ إن اللغة الفصحى تبعثر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية. فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب، ويعجب بأبطال بغداد القدماء، بدلاً من أن يشرب الروح المصرية ويدرس الروح المصرية^٢.

ثم يتم الإعلان من قبل سلامة موسى عن أن اللغة العربية ليست اللغة المعبرة عن مزاجنا العلمي، وأتينا الآن (نرطن) اللغة الفصحى رطانة، ولم تشربها بعد نفوسنا، ولا أمل في أن تشربها؛ لأنها غريبة عن مزاجنا، ولا تتناسب قط مع لغة التقدم والتحضّر والتمدين؛ وذلك لأنها لغة بدوية، والثقافة هي بنت الحضارة، وليست بنت البداوة، فلماذا يشق علينا

١. فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، م. س، ص ١٦٣.

٢. موسى، سلامة، اليوم والغد، ص ٧٤.

جدًّا أن نضع معاني الثقافة في هذه اللُّغة سواء بالترجمة أو بالتأليف^١.
 كما تمّ رفض سلامة موسى وأشياعه الزعم بأنّ اللُّغة دعامة من دعائم الهوية، وزعموا
 بأنّ القول بذلك وهم كبير، فلم تخسر أوروبا بترك اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عند
 جميع المثقّفين، عندما اعتمدت كل دولة على لغتها المحليّة. فلم تكن أبدًا لا اللُّغة
 اللاتينية ولا الدين المسيحي أهمّ الروابط التي كانت تربط الأمم الأوروبيّة؛ فإنّ الإنجليز
 قد حاربوا الأمريكيّين، وكلاهما ينتمي إلى لغة واحدة ودين واحد. ولم تكن الحروب في
 القرون الوسطى حين كانت اللُّغة اللاتينية عامّة أقلّ ممّا كانت عقب النهضة^٢. فالشعور
 بالنهضة عندهم هو نفسه شعور بالاستقلال، والناهضون الذين دعوا إلى العلم والأدب
 والتجديد في الأخلاق والسياسة شعروا بكرامة قوميّة، بعثتهم على الإكبار من شأن اللُّغة
 القوميّة، فاتّجه نظرهم إلى المستقبل دون المبالاة بالروابط التاريخيّة في الماضي. لينتهي
 موسى إلى القول: «ولو أنّ الأوروبيّين وضعوا الدين ولغة الدين فوق القوميّة، لكانت
 أوروبا الآن دولة واحدة عاصمتها روما»^٣.

ولا شكّ عندي في أنّ الدعوة إلى هجر اللُّغة الفصحى هي دعوة واهية، عمل الكثيرون
 من الدارسين والباحثين على بيان تهافتها، وإثبات أنّها دعوة ذات «أهداف مغرّضة لا تمتّ
 للعلم بنسب»^٤. تبنّاها المستعمر الإنجليزي في مصر الذي أراد أن يتّخذ من صعوبة قواعد
 اللُّغة العربيّة مبررًا للعدول عنها إلى العامية حتى يقضي بذلك على أهمّ مقوّمات الوحدة
 العربيّة والوحدة الإسلاميّة؛ ولذلك نشأت العديد من التيارات الوطنيّة والقوميّة لتؤكد
 أنّ اللُّغة العربيّة الفصحى لغة طبيعيّة مرنة تتناسب مع كل العلوم وتلائم كافّة الأغراض،
 وتناسب كل تطور مأمول، ولا يضيرها أبدًا دخول بعض المصطلحات العلميّة إليها، وما

١. اليوم والغد، م. س، ص ٧٨.

٢. موسى، سلامة، ما النهضة، ص ٧٤.

٣. م. ن، ص ٧٥.

٤. سعيد، نفوسة زكريا، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، صد.

٥. م. ن، ص ٢٠٥.

أكثر المصطلحات التي أُضيفت إليها، وذابت في مجالها العام من كافة المجالات. وهكذا تمثل كل دعوات هجر اللّغة العربيّة الفصحى أو تغيير حروفها ورسمها أو إلغاء قواعدها هدفاً خبيثاً أرادته الاستعمار؛ ولذلك قال أحد الباحثين عن أبرز رموز هذا التيّار الذي وافق أهداف المستعمر الإنجليزي، وهو سلامة موسى إنه: «إقليمي.. عدوّ للعروبة والإسلام. عميل من أخطر عملاء الغزو الفكري. أرادوه أن يمثل دوراً بعينه... أن يحمل معول الهدم ليدمر تراثنا العربي وعقيدتنا الإسلاميّة»^١.

د- صمود اللّغة في مواجهة الاستعمار

صمدت اللّغة العربيّة في مصر صموداً قوياً أمام محاولات الاستعمار الإنجليزي لمحوها؛ فقد شنّ الإنجليزيان: القاضي «ولمور» في كتابه «العربيّة المحكيّة في مصر» سنة ١٩٠١م، ومهندس الري «ويلكوكس» في محاضراته التي عنوانها بـ«لِمَ لَمْ توجد قوّة الاختراع لدى المصريّين الآن» هجومًا ضارياً على اللّغة العربيّة، ادّعى فيه كلّ منهما أن «من أخطر أسباب تأخر المصريّين في ميدان الحياة وتخلّفهم عن الأوروبيّين في الابتكار الأدبي والعلمي هو تمسّكهم بلغة القرآن والأساليب العربيّة القديمة، ومن الأفضل لهم أن ينهضوا باللّغة العامية حتى يسايروا ركب الحضارة، فهي لغة حيّة دائمة التجدد يفهمها جمهور الشعب، ولا نهضة للأمة إلا إذا نهض سواد الشعب، ليفهم ما يكتبه العلماء والأدباء، ولن يأتي هذا إلا إذا كانت الكتابة باللّغة العامية»^٢. وزعم أنّ أهمّ عائق يمنع المصريّين من الاختراع هو أنّهم يؤلّفون ويكتبون باللّغة العربيّة الفصحى، ولو ألّفوا وكتبوا بالعامية لصاروا مخترعين! واستدلّ على ذلك بأنّ الإنجليزي كانوا يؤلّفون باللّاتينية، فلم يكونوا مخترعين، فلمّا اختاروا لغة الفلاحين الإنجليزي وكتبوا بها صاروا مخترعين.

وهو الأمر الذي رفضه المصريّون بكلّ قوّة وإباء؛ حيث قام كل من محمّد عبده وحمزة فتح الله وحسن الطويل وحفني ناصف ومحمّد بيرون ومحمّد المويلحي وتوفيق البكري

١. كشك، محمّد جلال، قراءة في فكر التبعية، ص ٢١.

٢. فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، م. س، ص ١٣٩.

وأخريين بتكوين أول مجمع لغوي في مصر (مجمع البكري عام ١٨٩٢م) للدفاع عن أصالة اللغة العربيّة الفصحى ضدّ هذه الهجمة الشرسة، والعمل في الوقت نفسه على إصلاح أساليبها ومناهجها الدراسية، غير أن هذا المجمع لم يدم طويلاً، حيث استمر بضعة بضعة أشهر. إلا أن همم المصلحين لم تفتّر حتى أقنع أحمد لطفي السيّد الحكومة بضرورة إنشاء مجمع حكومي للغة العربيّة في ١٣ ديسمبر ١٩٣٢م^١.

وتوالى مقالات المصريين وندواتهم في دعوة الاحتلال الإنجليزي ضدّ اللغة العربيّة الفصحى وهتك أستار دعوة «ويلكوكس»، ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل ذهبوا إلى تنفيذ الدعوة بطريقة عمليّة؛ حيث قام فريق من المهندسين المصريين بإصدار مجلة علميّة أطلقوا عليها اسم «المهندس» للأبحاث الرياضيّة والعلميّة، ليثبتوا عملياً إمكان معالجة هذه المسائل باللّغة العربيّة الفصحى التي زعم «ولكوكس» أنّها لا تصلح لمعالجتها، فأضاعوا بذلك كل الجهود التي كان يبذلها في نشر دعوته^٢.

ولم تغلح الإغراءات الماديّة والأدبيّة التي أعلن عنها الاحتلال الإنجليزي للمصريين إذا أقبلوا على الكتابة بالعامية وأعرضوا تماماً عن الكتابة بالفصحى، فأعلن «ويلكوكس» في نهاية المحاضرة الأولى من محاضراته التي ضمنها كتابه «لِمَ لَمْ توجد قوّة الاختراع لدى المصريين الآن» عن مسابقة يغري بها المصريّين بالمكافآت الماليّة إذا تباروا في الكتابة بالعامية، فيقول: «من قدّم لنا هذه الخطبة باللّغة الدارجة المصريّة وكانت موافقة جدّاً يكافأ بإعطائه أربعة جنيهات إفرنكيّة، وإن كثر المتقدّمون فيعطى هذا المبلغ لمن يحوز الأفضليّة»^٣.

لكن تلك الإغراءات لم تزد المصريّين إلاّ تمسكاً باللّغة الفصحى حتّى يتّس صاحب الدعوة من صمودهم، وانتهى به اليأس إلى إغلاق مجلّته (مجلة الأزهر)^٤ بعد صدور

١. فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، م. س، ص ١٤٠-١٤١.

٢. تاريخ الدعوة إلى العامية وأثارها في مصر، م. س، ص ١٠٦-١٠٧.

٣. م. ن، ص ١٠٧.

٤. مجلة الأزهر ليست هي المجلة الموجودة حالياً التي يصدرها مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر الشريف، وإنما هي

العدد العاشر منها. وقد صرّح «ولكوكس» نفسه بالسبب الذي جعله يتوقّف عن إصدار مجلّته وهو عدم تلبية المصريّين بصفة عامّة لدعوته^١. وهو الأمر نفسه الذي قوبلت بها دعوات «ولمور»؛ إذ ناقشت مجلّة الهلال على صفحاتها جميع مزاعم «ولمور» التي برّر بها دعوته للكتابة بالعامية، على أسس علميّة منطقيّة تاريخيّة كانت كفيلة بإزالة الشكوك التي أثارها «ولمور» في نفوس أبناء العربيّة، ورغم ذلك بقيت مجموعة من عملاء الاحتلال ودعاة التغريب متشبّثة بهذه الدعوة البالية حتى يومنا هذا.

ثالثاً: الاستعمار والدين

سعت إنجلترا منذ ولوجها أرض مصر إلى إبعاد المصريّين عن الدين الإسلاميّ بشتّى الطرق والوسائل، لدرجة أنّ اللورد كرومر صرّح قائلاً: «إنّ مصر بلد غير محدّد، وأنّ وصفها بأنّها بلد إسلامي شيء بعيد جدّاً عن الصواب»؛^٢ ولذلك عمل الإنجليز على قطع الصلة بين الدين الإسلاميّ والمصريّين، وعملوا على تحقيق ذلك عبر وسائل شتّى، كان أهمّها: التبشير، والاستشراق، والطائفية. فقد كانت إنجلترا بحقّ أشدّ قسوة على الإسلام، وأشدّ خطراً على العالم الإسلاميّ من كل الدول الاستعماريّة الأخرى؛ لأنّها كانت أقلّ حماقة من وسائل فرنسا وإيطاليا، ولأنّها استولت على أخطر البقاع الإسلاميّة؛ فقد استولت على الهند القارة الضخمة التي كان يحكمها المسلمون، ثمّ مصر (قلب العالم الإسلاميّ)، وتقاسمت مع روسيا السيطرة والنفوذ في إيران، واستولت على الخليج

مجلة علمية كان يصدرها عالمان كبيران من علماء الأزهر، وهما إبراهيم بك مصطفى والدكتور حسن بك رفقي، وبعد أن استمرّا فيها خمس سنوات إلى نهاية سنة ١٨٩٢م نيطت بهما أعمال أوسع من أعمالهما الأولى، ومنها إسناد نظارة مدرسة دار العلوم العليا إلى إبراهيم بك مصطفى بعد أن كان مدرّساً للكيمياء في إحدى المدارس العليا، فتحلّيا عن مجلة الأزهر من نهاية سنتها السادسة يناير ١٨٩٣م إلى المهندس الإنجليزي الشهير وليم ويلكوكس وكانت فاتحة أعمال ويلكوكس عند انتقال مجلة الأزهر إليه أن ألقى محاضرة في نادي الأزبكية أنجلو إجبشيان كلوب موضوعها: «لِمَ لم تُوجد قوة الاختراع لدى المصريّين الآن؟»

١. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، م. س، ص ١٠٧.

٢. انظر: عبد الملك، أنور، نهضة مصر - تكون الفكر والأيدولوجية في نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥-١٨٩٢م)، ص ٣٧٠.

العربي وسلطنته. كما أنّ الإنجليز هم الذين قضوا على الدولة الإسلاميّة الكبرى، والتي كانت تمثّل القوّة الصامدة المقاومة للنفوذ الأجنبي، وهم الذين أزالوا دولة الخلافة العثمانيّة، وأذلّوا المسلمين في كل البلاد^١. ولأنّها -أيضاً- قد أدركت أنّ الدين الإسلاميّ يمثّل هويّة مميّزة للشرقيّ منذ عصر الفتوحات الإسلاميّة، فهو معيار التفرقة بين الجميع، فلا فرق لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى. وأنّه لا هويّة للحاكم في كلّ العصور تميّزه سوى أنّه حاكم مسلم. ومع وقوع معظم الدول العربيّة تحت السيطرة التركيّة، قوي التأكيد على الهويّة الإسلاميّة، هويّة الدين، على حساب هويّة اللّغة، رغبةً في دمج القوميّات الأخرى المتعايشة مع الأتراك داخل الإمبراطوريّة التركيّة القائمة حينذاك أو ما سمي وقتها بـ«التريك».

ولذلك سعى الاحتلال الإنجليزي إلى إثارة العديد من الشبهات حول الإسلام، وطعن في الشريعة الإسلاميّة، ودعا إلى استبدالها بالقانون الوضعي الأوروبي، وربط تقدّم المسلمين بنبذ القرآن والإسلام واللّغة العربيّة، فقال المستشرق الإنجليزي إدوارد دور الذي صاحب الاحتلال: «إنّ أوّل ما يجب أن يبدأ به إصلاح التعليم الابتدائي في مصر هو الإعراض عن الدراسة الكاملة للقرآن»^٢. وسعى الإنجليز إلى ضرب الدين الإسلاميّ من خلال تحطيم الأخلاق والقيم والعادات الإسلاميّة. وسعوا إلى القضاء على الإسلام في نفوس المسلمين لكي لا يبقى منه إلاّ اسمه، وأرادوا إيقاف انتشاره بكل الطرق، وشوّهوه في نظر الشعوب الغربيّة. فمنعوا دخول المسلمين وعلمائهم جنوب السودان، وحالوا بين تعليم المسلمين من سكان تلك الجهات أحكام الدين وآداب المسلمين^٣. كما أنّهم (الإنجليز) هم من ألغى الخلافة الإسلاميّة، وحالوا بين المسلمين وبين إعادتها، وإليه يرجع الخطر الأكبر في إقامة دولة إسرائيل في قلب العالم الإسلاميّ. فهو الذي مكّن لها ذلك، وأتاح لها الفرصة لمليون يهودي أقطعهم الأراضي وأمدّهم بالسلاح والعتاد،

١. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٤٠١.

٢. انظر: نهضة مصر - تكون الفكر والأيدولوجية في نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥-١٨٩٢م)، ص ٣٩٢.

٣. العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، م. س، ص ٤٠٢.

وجعل منهم قوة عسكرية ذات بأس تهدد الحجاز ومصر وسوريا ولبنان والعراق وسائر بلاد العرب .

كما حرص المستعمر الإنجليزي على إفساد الدين الذي يشكل منبع وحدة الفكر ووحدة الشعور بين أفراد الشعوب المستعمرة وجماعاتها، ولذلك كان حريصاً على أن يفسد كل ما يحافظ على الوحدة أو التواصل، وذلك من خلال آليتين:

الأولى: أن يضرب كل قوة مناهضة له، تحت أي راية تجمعت.

الثانية: أن يحول في كل الظروف، بينها وبين أن تتجمع تحت راية أكثر فعالية^٢. ولم تكن هناك راية أكثر فعالية في البلاد الإسلامية أكثر من الدين، حيث يستطيع أن يحشد الناس ويحثهم على الجهاد ضد المحتل الغاشم إلى أن يتحقق النصر أو الشهادة، وكلاهما مطلب كل مسلم في كل زمان ومكان. فكان من الطبيعي أن يؤرق الدين المحتل أينما كان؛ ولذلك كانت حرب الاستعمار الإنجليزي للإسلام حرباً لا هوادة فيها؛ باعتباره العامل الدافع إلى القوة والجهاد والمقاومة. وكانت هذه الحرب بأساليب مختلفة، منها: أولاً: نقض مفاهيم الإسلام وتحريفها، وخلق دعوات تحمل لواء الإسلام، وتتنكر لأهم مقوماته وهو «الجهاد» الذي هو ذروة سنام الإسلام. حيث ألغته الغاء، أو قللت من أهميته، أو عملت على تفسيره تفسيراً خاطئاً.

ثانياً: الطعن على الإسلام والحمل على مقوماته واتهامه بأنه مصدر تأخر المسلمين وضعفهم^٣.

وفي الحقيقة ما زال المستعمر الراهن يعزف على هذا الوتر الحساس إلى يومنا هذا، فإذا كان في الماضي يتنكر للمفاهيم الإسلامية وعلى رأسها الجهاد، أو يحرف ويغير معناها، فإنه اليوم يقوم بعملية انتقاء لهذه المفاهيم ويقوم بتوظيفها لخدمته ولصالحه.

١. العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، م. س، ص ٤٠٢.

٢. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، م. س، ص ٢٩.

٣. العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، م. س، ص ٣٩٧.

فيستغلّ على -سبيل المثال لا الحصر- مفهوم «الجهاد» ذاته لصالحه، وعلى طريقة الحرب بالوكالة دون أن يخسر شيئاً؛ هو فقط يوقع الفتنة ثم يبيع السلاح مقابل أن يستولي على النفط وسائر الخيرات دون نسبة أو تناسب بين المباع والمشتري، والنتيجة انهيار الأمم في حروب ضد جماعات فهمت الجهاد بالطريقة التي أراد المستعمر لها أن تفهمه. وما داعش من هؤلاء ببعيد، حيث لم تحقّق هذه الجماعات الجهادية سوى الخراب للإسلام والمسلمين في كل بقاع العالم الإسلامي شرقاً وغرباً. والرابع الوحيد هي الدول الغربية الاستعمارية الكبرى، ثم إسرائيل التي باتت تشعر بالأمن والأمان، بل باتت صواريخها وطائراتها تصيب أي مكان تستشعر منه الخطر في العالم الإسلامي بحجة القضاء على الإرهاب والإرهابيين.

أما الطعن على الإسلام وتصويره على أنه سبب تأخر المسلمين وضعفهم، فهي دعوة قديمة حديثة راهنة، ما زالت تلوكها ألسنة المستغربين، فقد دأبت الدراسات التغريبية على تشبيه موقف الدين الإسلامي من العلم بموقف الكنيسة الكاثوليكية من العلم في عصر النهضة. وأنه لم يكن هناك بدُّ أمام أوروبا إلا أن تنحّي الدين ورجاله وكنيسته جانباً لتتطور وتتقدّم وتنهض، وأنها وقتما تخلّصت من الدين وسادت العلمانية الشاملة تحقّق لها ما أرادت من تقدّم علمي وتقني وحضاريّ. ومن ثمّ فلا سبيل أمام الأمة الإسلامية والعربية إذا أرادت أن تلحق بركب الحضارة أن تنحّي الدين جانباً وتسلك نفس المسلك الغربي. رغم أنّ العلم في الإسلام مطلب شرعي وفريضة دينية كثر الحديث عنها في القرآن الكريم وفي السنّة النبوية المطهّرة. بل إنّ المتأمل في أوّل آيات القرآن الكريم سيجدها «اقرأ»، وأنّ ثاني سور القرآن الكريم نزولاً هي «سورة القلم». الأمر الذي يحمل الكثير من المعاني والدلالات. هذا فضلاً عن العديد من الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة التي تُعلي من شأن طلب العلم وضرورة الحرص على طلبه والتفكير في خلق السماوات والأرض، وأنّ المرء كلّما ازداد علماً بالصنعة وبالعلم ازداد إيماناً بالخالق. فليس في الإسلام أبداً «أطفئ سراج عقلك ثم اتبعني».

رابعاً: الاستعمار والثقافة

تعتمد هوية أيّ أمة على ثقافتها الذاتية التي حاولت الإجابة على تساؤلاتها الخاصة، وتقوم الهوية المصرية على الثقافة الإسلامية التي تربط بين غالبية المصريين. ولقد حاول الاحتلال الإنجليزي منذ أن جثم على صدور المصريين أن يتخلص من نفوذ الثقافة الفرنسية وأن يحلّ محلّها الثقافة الإنجليزية، فجعل اللّغة الإنجليزية لغة الدراسة بالتعليم القومي، ونجح في إزاحة اللّغة الفرنسية تدريجياً من المدارس الحكومية، وتخلّص «دلوب» من الموظفين الفرنسيين، وأحلّ محلّهم مدرّسين من الإنجليز. وقد أضرّ كل ذلك باللّغة العربيّة أيضاً، غير أنّ الجهود الوطنيّة قد نجحت في إعادة اللّغة العربيّة -منذ أيام سعد زغلول- لتصبح لغة الدراسة في التعليم القومي، وإن كان الإنجليز قد نجحوا في جعل اللّغة الإنجليزية اللّغة الأوروبيّة الأولى بمدارس التعليم القومي الحكومي، إلّا أنّ الثقافة الفرنسيّة خارج هذا الميدان ظلّت محتفظة بتفوّقها على الثقافة الإنجليزيّة في مصر حتّى الحرب العالميّة الأولى^١.

وقد أدرك الاستعمار الإنجليزي أنّ الثقافة الإسلاميّة هي الوعاء الأكبر الذي يمثّل الهوية الوطنيّة لعموم الشعب المصري؛ حيث تنطلق عقليّة المصريين من النصّ الديني سواء أكان القرآن الكريم أو السنّة النبويّة المطهّرة. فعمل على تغيير هذه العقليّة والقضاء على تلك الثقافة القائمة على التراث، ورأى أن تغيير هذه الثقافة هو الهدف الأمثل والأمل المنشود، وهذا يُفهم من مقولة كرومر: «إنّ مصر يجب أن تطبع بالطابع الأوروبي، ويجب أن يكون الإنجليز هم العنصر الرئيسي في هذا التحويل»^٢.

ولمّا كانت الثقافة المصريّة مرتبطة أشدّ الارتباط باللّغة العربيّة والدين الإسلامي؛ فقد نالت الحظّ الأوفر من الهجوم الاستعماري. الذي رأى أنّ وسيلة تغيير الثقافة تكمن في التعليم، فحرص على غزو تعليمي وثقافي ضخم، وذلك عن طريق إرسالياته ومعاهده الأجنبيّة، فاستطاع تخريج أجيال جديدة وفق مفاهيمه، وأتاح لهذه الأجيال السيطرة

١. سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢م)، ص ٩.

٢. انظر: نهضة مصر - تكون الفكر والأيدولوجية في نهضة مصر الوطنيّة (١٨٠٥-١٨٩٢م)، م. س، ص ٣٧١.

والقيادة والزعامة والحكم في أغلب أنحاء العالم الإسلامي، كما أطلق حركة التبشير لتحكم تنفيذ هذه الخطة، وفرض على الدولة المحتلة أنظمة تعليمية قوامها تحقيق هذا الهدف. ومن هنا جاء ما وصف بأنه محاربة للإسلام واللغة العربية^١.

وهنا يمكننا القول إن الاستعمار الإنجليزي وجه سهامه المسمومة إلى الثقافة الوطنية، وقام بالتمييز بين ثلاثة تحديدات ممكنة فيما يخص الثقافة، الأول عقلي يرفض كافة العلوم والفنون والفلسفات العربية الإسلامية، مدعيًا بأنها أصبحت بالية لا تصلح للحاضر ولا للمستقبل، وأن مجرد دراستها هو مضيعة للوقت؛ لأن العقل الذي أنشأها عقل ماضوي انتهت صلاحيته في الوقت الحاضر، ولا بد من تجاوز هذا العقل الأصولي أو الكلامي أو الصوفي، إلى العقل العلمي المملوء بالثقافة التقنية والعلمية المعاصرة. والثاني سياسي يرفض كافة الحكومات الدينية ونظام الخلافة ويدعو إلى الديمقراطية الغربية التي يجب أن تشبع بها قلوب الجماهير وعقولهم قبل أن يفرضها الساسة على أرض الواقع. والثالث أنثروبولوجي، يحاول تحرير المرأة من ناحية، ومن ناحية أخرى تحرير العقول من كافة العادات والتقاليد التي ورثوها عن المجتمع الزراعي أو البدوي بما فيها المعتقدات الدينية والأعراف والأخلاق، والتحلي بقيم المجتمع الصناعي وعاداته وتقاليده وأخلاقه على غرار النمط الأوروبي.

ومن ثم رأى كرومر أن الشرق يتميز بالخصائص الآتية: الاستبداد، الحكم غير المباشر، نظام غير مهذب للقانون العالمي، الشريعة الدينية، تعدد الزوجات، انزواء المرأة، العبودية، القسوة في تنفيذ العقوبات البدنية، الملابس الفضفاضة، الأبجدية المعقدة، الشعر والنثر المجازي. أما أوروبا فتتميز بإحدى عشرة سمة يجب أن تحل محل خصائص الشرق وسماته، وهي: الحكم الحر، والحكم المباشر، نظام مركب للقانون العالمي، القانون المدني، الزواج الفرد، حرية النساء، الحرية المدنية

١. العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، م. س، ص ٣٩٦-٣٩٧.

للجميع، الملابس الملتصقة بالجسم، الأبجدية البسيطة، النشر الجدلي (المتعقل) ^١. وعلى هذا عمل المستعمر الإنجليزي من خلال آليات ثلاث هي: التعليم (الغزو الثقافي)، والتبشير، والاستشراق:

١ - التعليم والغزو الثقافي

فطن المُستعمرُ الإنجليزي إلى مدى احترام الثقافة الإسلامية للتعليم وتعويلها عليه كأهم سبل النهضة، فحاول أن يفيد من ذلك إلى أبعد الحدود، وأن يسخر التعليم لتحقيق أهدافه ومآربه؛ لذلك لم يكن غريباً أن يجعل المستعمر الإنجليزي من قضية التعليم كبرى معاركة وأعظم عوامل تثبيت أركانه وقواعده. فعمد إلى إقامة الإرساليات والمدارس الأجنبية الكبرى لبيت من خلالها ثقافته بدلاً من الثقافة الوطنية التي تدعم الهوية الإسلامية. وأدخل تعليم اللغة الإنجليزية في جميع مراحل التعليم، ثم حاول تدريس بعض المواد باللغة الإنجليزية، توطئة لتدريسها جميعاً بتلك اللغة، مما أثار ثائرة الصحافة المصرية، وكان موضع نقدها الشديد. وقد هدف الإنجليز من وراء ذلك إلى هدفين: أولهما إضعاف اللغة العربية؛ إذ وجدت بجوارها لغة أجنبية تراحمها، وتصرف جهد التلاميذ عن لغتهم القومية، إلى اللغة الأجنبية. والآخر القضاء على القومية العربية والروح الوطنية، وتحويل الشباب المصري بالتدرج نحو العادات والتقاليد الإنجليزية ^٢. كما قصر التعليم على الطبقات العليا فقط من المجتمع؛ إذ إنه بعد أن كان التعليم في جميع درجاته بالمجان، بل وكان الطلاب يتلقون معونات ومنحاً مالية، بالإضافة إلى الطعام والكساء، أصبح تكاليف التعليم عالية، ومعنى ذلك ألا يُقبل على التعليم إلا من كان قادراً على دفع نفقاته. فانحصر التعليم على أولاد القادرين فقط دون عامة الشعب، حتى وصلت نسبة الأمية مستويات عالية جداً؛ إذ قُدّرت بين ٩٢٪ بين الذكور و٩٧٪ بين الإناث ^٣.

١. انظر: نهضة مصر، م. س، ص ٣٦٩.

٢. الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، م. س، ص ٦٦.

٣. م. ن، ص ٦٦.

وسيطر الإنجليز بالفعل على التعليم سيطرة تامة، وتولّى المناصب العليا فيه موظفون من الإنجليز الاستعماريين، وقد وضع على رأس هذه الوزارة مستشاراً إنجليزياً، هو المستر دنلوب، الذي طغى بجبروته على الوزير المصري، وحشد جيشاً من المدرّسين الإنجليز في المدارس الثانوية والعالية لتدريس اللغة الإنجليزية وبعض المواد الأخرى. وقد كانت مهمة هؤلاء المدرّسين الأساسية، تحطيم الروح الوطنية في نفوس الطلاب، وبثّ روح الاستكانة والضعف في قلوبهم، وحثهم على الرضى والتسليم باحتلال الإنجليز لبلادهم، وإيهامهم أنّ هذا الاحتلال أبديّ، لا فكاك لمصر من ربقته، فإذا تخلّى الإنجليز عن مصر، فلا بدّ أن تحلّ محلّهم دولة أخرى من الدول الطامعة فيها. فالخير كلّ الخير، والحالة هذه، إنّما هو في الرضى باحتلال الإنجليز، وقبول حكمهم^١. خلاصة القول إنّ التعليم في عهد الاحتلال لم يكن سوى وسيلة لتثبيت أقدام المحتلّ الإنجليزي في مصر، وكان وسيلة لتخريج مجموعة من الموظفين ليعملوا في إدارات الحكومة ومصالحها، وليكونوا طوع إرادة رؤسائهم من الإنجليز، يطلبون لهم الرضى حتّى يرضوا.

وهو الأمر الذي حرص عليه الاستعمار منذ بداياته في مصر؛ إذ رأى ضرورة أن يرافق الاحتلال السياسي احتلال معنوي، بحيث يتقرّب أهالي المستعمرات من المستعمرين إلى أن يندمجوا فيهم اندماجاً، وأن يتعلّم الأهالي تعليماً ينشئ في نفوسهم حب المستعمر فيستسلمون له طواعية. وإذا كان هذا هو الهدف الأكبر، فإن هناك هدفاً آخر يتصل به ألا وهو القضاء على الثقافة القوميّة، وذلك عن طريق الطعن فيها وإثارة الشكوك حولها والشبهات في أعماقها، حتّى نظر إليها المواطن نظرة الازدراء والاحتقار، وأخذ يعلي عليها ثقافة المستعمر الذي تُقدّم له في قالب براق، وتعرض عليه عرضاً حافلاً بالقوّة والبطولة^٢.

وهذا عين ما يُقصد بمفهوم الغزو الفكري أو الغزو الثقافي والذي يعني اصطلاحاً:

١. الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، م. س، ص ٦٦.

٢. انظر: نهضة مصر، م. س، ص ٣٣٤.

«الجهد البشري المبذول ضدّ عدو ما، لكسب معارك الحياة منه، ولتذليل قياده، وتحويل مساره، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتياً إذا أمكن، وهذا هو أقصى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب، وإن كان في نفس الوقت هو أقصى درجات نجاح الغزاة. وسلاح هذا الغزو هو: الفكر، والكلمة، والرأي، والحيلة، والشبهات، وخطابة المنطق، وبراعة العرض، وشدة الجدل، ولدادة الخصومة، وتحريف الكلم عن مواضعه، وغير ذلك ممّا يقوم مقام السيف والصاروخ في أيدي الجنود، والفارق بينهما هو نفس الفارق بين وسائل وأساليب الغزو الفكري قديماً وحديثاً»^١.

ومن ثمّ كان الهدف الرئيسي الذي وضعه المستعمر الإنجليزي وابتغى تحقيقه من الغزو الثقافي هو التشويش على كلّ ما يمكن أن يبرز الذاتية العربيّة والهويّة العربيّة المستمدّة من الفكر الإسلامي. فحرص على أن تؤسّس مناهج التعليم في البلاد المستعمرة لعزلة إقليميّة بين الدول والشعوب، فلا يدرس الطالب سوى إقليمه فقط دون معرفة أيّ شيء عن الأقاليم الأخرى، حتّى يقضي تماماً على بذور أيّ فكرة من الممكن أن تدعو إلى التوحيد أو التكامل الاقتصادي في المستقبل. هذا فضلاً عن تركيز هذه المناهج التعليميّة بصورة واضحة على تدريس ثقافة المستعمر وتاريخه ودينه ولغته على نحو واسع الإغراء للشباب المسلم، مبتعدة به عن تاريخه ولغته ودينه بالهجوم والتشكيك، وإثارة الشبهات، والربط بينه وبين تاريخ المستعمر ودينه ولغته ومكانه من الحضارة، والربط بين تاريخ الأمم الإسلاميّة ودينها وبين وقوعها تحت نفوذ الاستعمار وتخلفها^٢.

كما حرص الاستعمار الإنجليزي أيضاً على تجميد التعليم في الأزهر، وأنشأ نظاماً تعليمياً آخر مستقلاً عنه تمثّل في المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليّات، له طابعه الغربي الخالص، وجعل مدارس ومعاهده هي التي تؤدّي إلى المناصب والنفوذ والثروة حين أبقى خريجي المعاهد الأزهرية في درجة منخفضة. وقد كان لهذا الازدواج العلمي وهذه

١. سعيد، عبد الستار فتح الله، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٢١.

٢. العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، م. س، ص ٣٣٨.

الثنائية أثرهما البعيد المدى في الأخطار التي واجهتها مصر طوال هذه الفترة^١. وهكذا عمل الاستعمار الإنجليزي على طمس الهوية الوطنية عن طريق التعليم وبرامجه ومناهجه المختلفة التي انتشرت في غالبية الشعوب الإسلامية، وساعدها في ذلك قوة نفوذ الدول الاستعمارية في البلاد الإسلامية. في حين ضعفت المعاهد والمدارس الإسلامية ضعفاً بيّناً.

٢- التبشير ودوره الاستعماري

في ظلّ الاستعمار الإنجليزي لمصر تدفقت البعثات التبشيرية من كافة البلاد الاستعمارية إلى كافة ربوع مصر، وبنّت مدارسها وكنائسها ومستشفياتها بدعم من النفوذ الاستعماري الإنجليزي وبدأت تعرض خدماتها على المصريين. وقد كانت حركات التبشير من أكبر الأعمال التي اعتمد عليها الاستعمار في تركيز وجوده وبقائه، ليس فقط في خلال فترة احتلاله لهذه الأقطار، بل لإعداد ركائز تبقى بعد جلائه عن طريق أجيال تستقطب مفاهيمه وقيمه. فحركة التبشير هي في المقام الأول حركة استعمارية لخدمة النفوذ الأجنبي. وكان مقصدها الأول هو هدم الثقافة الدينية الإسلامية في قلوب المسلمين وبيان تخلفها ورجعيّتها.

وقد اجتاحت هذه الحملات التبشيرية مصر كلها، بل والعالم الإسلامي كله، ونجحت في صناعة عملاء لها من أبناء مصر والمقيمين فيها، وكان أشهر هؤلاء وأبعدهم صيتاً وشهرةً، كل من: جرجي زيدان ويعقوب صروف وفؤاد صروف وفرح أنطون وشبلي شميل وسلامة موسى، وقد نجح هؤلاء نجاحاً كبيراً في اختراق الصف المصري. وأمام نجاح هؤلاء في مهمّتهم اندفع المبشّر الإنجليزي «زويمر» في جراءة غريبة، فدخل الجامع الأزهر ووزّع منشوراته بها! وقد نجحت تلك الحملات التبشيرية نجاحاً كبيراً في جنوب السودان، حيث أوجدت فاصلاً كبيراً بين الشمال والجنوب، وحالت بين المسلمين في الشمال والجنوب حتى انحصر الإسلام في الجنوب أمام قوة الحركات التبشيرية المدعومة

١. العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، م. س، ص ٣٤٢.

بالمال وبالكثير من الخدمات التي يحتاجها الجنوبي برعاية كاملة من المحتل الإنجليزي في مصر، الأمر الذي أدى في النهاية إلى فصل الجنوب عن الشمال، وأصبحت جنوب السودان دولة مستقلة ليس لها من الهوية العربية والإسلامية شيء يُذكر. ويرى بعض الباحثين أن الهدف الأسمى للحملات التبشيرية هو نفس هدف الاستعمار، وهو طمس الهوية الوطنية، فقد «رأى المبشرون والمستعمرون عظمة الثقافة العربية الإسلامية، وأنها مصدر عزة الشرق وللعرب والمسلمين. ثم أيقنوا أنّ أمة لها هذه الثقافة لا يمكن أن تخضع أو تذلل أو تبيد. وهكذا انصرفت أذهان هؤلاء المبشرين والمستعمرين إلى تشويه وجه هذه الثقافة وإلى الحطّ من شأنها في نفوس أصحابها»؛ ولذلك عملت حركات التبشير برعاية المستعمر الإنجليزي في مصر على تشويه ما هو إسلامي أصيل والحطّ من قيمته. وبيان تهافت إسهام العرب والمسلمين في الحضارة الحديثة.

٣- الاستشراق وخدمة الاستعمار

عهدت إنجلترا إلى اللورد دوفرين سفيرها في القسطنطينية وأحد أهمّ المستشرقين الإنجليزي في ذلك العصر، بدراسة حالة مصر وتقديم مقترحاته عن الإصلاحات التي يرى إدخالها فيها. وطبعاً ليس المقصود بتلك الإصلاحات ما يعمل على تقدّم مصر ورفقيها، ولكن المقصود تثبيت قدّم الإنجليز فيها، ودوام سيطرتها عليها، وتحويلها إلى مستعمرة بريطانية^٢.

وقد عكس اللورد دوفرين دور المستشرقين على الوجه الأمثل؛ إذ حضر لورد دوفرين إلى مصر في ٣٠ من أكتوبر عام ١٨٨٢م، أي بعد إتمام الاحتلال بخمسة وأربعين يوماً، ومكث بها ستّة أشهر، يضع تقريره المشهور، الذي أرسى فيه الأسس العامّة، والخطوط العريضة للحماية المقنّعة، والذي صار دستوراً للاحتلال، وقانوناً أساسياً التزمه طوال

١. خالدي، مصطفى؛ فروخ، عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٢١٨.

٢. الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، م. س، ص ٥٦.

بقائه في مصر. ولقد كانت الغاية التي هدف إليها التقرير هي إضعاف مصر وسحق الروح الوطنية فيها، والقبض على ناصية الجيش والشرطة، ومحو شخصيتها ومركزها الدولي، بالتصرف في شؤونها الخارجية، والسيطرة على شؤونها الداخلية، والعودة بها إلى مجاهل العصور الوسطى، بإلغاء الدستور، والقضاء على المجلس النيابي، والتغلغل في وزارات الحكومة ومصالحها، وإغلاق المدارس ومعاهد العلم، والاكتفاء من التعليم بتخريج موظفين يعملون في إدارات الحكومة ومصالحها^١.

ولذلك يمكننا القول إن الاستشراق هو الحركة الأخطر في فكر الاستعمار، حيث إنها بمثابة المصنع الذي يعد الخطط والاستراتيجيات التي يسير في ضوئها المحتل العسكري، كما يعدّ الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية^٢. وما يدلّ على ذلك هو تعجيل إنجلترا في العمل على تنفيذ بعض اقتراحات اللورد دوفرين، قبل مغادرته مصر، وقبل رفعها إلى وزارة الخارجية البريطانية، وقد عاون الخديوي توفيق على تنفيذ تلك الاقتراحات بكل أمانة وإخلاص، وكان وجود جيش الاحتلال ضماناً لسحق أي معارضة تقوم في وجه تنفيذها^٣.

وقد تعدّدت أهداف حركة الاستشراق التي تعمل في الأساس على تفرغ الهوية الإسلامية من مضمونها عن طريق تجنيد أجيال منسلخة من هويتها متأثرة بالمذاهب الغربية الوافدة، وإصدار الموسوعات العلمية والدوائر المعرفية التي تضمّ كل ما يتعلق بها من معلومات اجتماعية ودينية وثقافية وسياسية واقتصادية... عن المجتمعات الشرقية في خدمة المحتل لاستغلاله ضد الشعوب الإسلامية، وذلك عن طريق دسّ بعض الأكاذيب والضلالات التي تستند إلى حوادث فردية وأحداث استثنائية وقعت في التاريخ الإسلامي

١. الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، م. س، ص ٥٧.

٢. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستشراق - الاستعمار، كتاب إلكتروني على الرابط التالي:

<http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?7048->

٣. الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، م. س، ص ٥٧.

للتشكيك وإلقاء الشبهات والمغالطات وافتراء الأكاذيب ودس السموم الفكرية، بحيث تكون مرجعاً علمياً للكثير من الباحثين العرب والمسلمين؛ ولذلك يجب توخّي الحذر في الرجوع لمثل هذه الموسوعات والإصدارات العلمية.

ومن ثمّ كانت حركة الاستشراق هي إحدى أذرع الاستعمار، وواحدة من أهم أدواته التي عنيت بدراسة أوضاع الشعوب والأوطان المستعمرة، تُعنيها درساً وتخطيطاً ومكراً لتطيل فترة سيطرتها وتستمرّ في استنزاف خيراتها واستغلال ثرواتها، ولتعطّل يقظتها وتمنع انبعاثها. وهذا ما نلاحظه من الكتابات المتنوعة -العدائية والمعرضة- لكثير من المستشرقين الذين مهّدت أعمالهم الطريق لطلائع الغزاة والمستعمرين والصهاينة، ليدخلوا البلاد، ويستعمروا الشعوب، ويزوروا الحقائق^١.

كما بذل الاحتلال الإنجليزي جهوداً غير عادية للدعوة إلى حرّية المرأة على الطريقة الغربية التي تبدو فيها المرأة خارجة على كافة الأعراف والعادات والتقاليد الشرقية، فبرزت نسوة من كبار القوم في مصر خلعن الحجاب وتحررن من الثقافة الإسلامية من أمثال هدى شعراوي (١٨٧٩-١٩٤٧م) التي تلقّت تعليمها على أيدي مربيّات أجنبيّات، فأتقنت الإنجليزية كما أتقنت الفرنسية مع معلّمتها الفرنسية، بالإضافة إلى أنها حفظت القرآن، لكنّها لم تتقن العربية تماماً كما جاء في مذكراتها؛ إذ تقول: «ختمت القرآن فظنّ من حولي أنني ملكت ناصية اللّغة العربيّة والديانة، ولكني في الحقيقة لم أستطع قراءة شيء غير القرآن؛ لأنّه مشكّل، ولا أعرف من علوم الديانة إلّا كيفية الوضوء والصلاة...»^٢. فكانت ناشطة نسوية أسّست الاتحاد النسوي المصري، وكان لحركتها النسوية دورٌ مركزيٌّ في التغيير الذي طرأ على أوضاع المرأة، وبالتالي في التحول الهائل الذي مرّ به المجتمع المصري في النصف الأوّل من القرن العشرين.

وانطلاقاً من تلك الفلسفة الغربية التي تنظر إلى تحرير المرأة من خلال مقولة «النّديّة»

١. معاليقي، منذر، الاستشراق في الميزان، ص ٨.

٢. شعراوي، هدى، مذكرات هدى شعراوي، ص ١٦٩.

القائمة على التماثل بين الرجل والمرأة، منكرة طبيعة التمايز الطبيعي بينهما، فحلّت المرأة محلّ الرجل، معتقدة أنّها بذلك قد حقّقت انتصارات لبني جنسها. وبالتزام المرأة الشرقيّة بهذه الفلسفة الغربيّة للتحرير^١ تفقد -بصورة تامّة وواضحة- هويّتها الوطنيّة، وتتحوّل -كما يقول محمّد عمارة- إلى: «غانية رومانسيّة أو مسترجلة إسبرطية، أو صورة غلاف، وإعلان سلعة رأسماليّة أو جارية مملوكيّة»^٢.

وهكذا تعرّضت الثقافة العربيّة الإسلاميّة بتحريض متعمّد من المستعمر البريطاني لهجمات ظالمة سنّها عليها باحثون ومؤلّفون كانوا يمسكون بالأقلام كمعاول للهدم والتجريح والتشويه في عمل ظاهره فيه خدمة العلم والمعرفة والبحث التاريخي، وباطنه الهجوم على التراث العربي الإسلامي وعلى الثقافة الإسلاميّة^٣. وقد قام هؤلاء لمستشرقون الاستعماريّون بذلك للانتقاص من العقلية العربيّة ومن إسهامها الحضاري بغرض طمس المناطق المنيرة في الهوية العربيّة الإسلاميّة والتي يمكن أن تكون منطلقات حقيقيّة للنهضة الحديثة.

١. يمكن القول إنّ التحرير الإسلامي للمرأة أعمّ وأشمل من تلك «الندية» الغربيّة، ولا يقدر في ذلك فكرة «القوامة» الإسلاميّة، فقد كفل الإسلام الحرّيّة للمرأة فجعل لها ذمّة ماليّة خاصّة، وأعطى لها الحقّ في اختيار شريكها، والحقّ في الانفصال عنه. وما «القوامة» سوى درجة استحقّقتها الرجل لتميّز طبيعته في ميادين معيّنة، ولا تعني بحال من الأحوال الانتقاص من مبدأ المساواة، فيقابل «قوامة» الرجل في الأمور التي تناسب طبيعته كرجل «قوامة» المرأة في الأمور التي تناسب طبيعتها كأثني.

٢. عمارة، محمّد، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، ص ٢٦٠

٣. التويجري، عبد العزيز بن عثمان، مقدمة كتاب: محمّد فاروق النبهان، الاستشراق - تعريفه، مدارسه، آثاره، ص ٥.

خاتمة

وقد توصلت بحث موضوع «الاستعمار الإنجليزي وتدمير مكونات الهوية الإسلامية (اللغة - الدين - الثقافة)» إلى مجموعة من النتائج المهمة نقف عليها فيما يلي:

أولاً: عمدت إنجلترا إلى استعمار مصر لأهميتها الاستراتيجية؛ إذ إنها أدركت أهمية موقع مصر الجغرافي بوصفها الباب الأمامي لأفريقيا المؤدّي إلى وسطها، ومن ثمّ إلى بابها الخلفي، وهو جنوب أفريقيا، والذي يقع تحت سيطرتها بالفعل، فتصبح بذلك صاحبة اليد الطولى في أفريقيا، إذ بعد احتلالها مصر وضمّها إليها، وضمّ السودان أيضاً إلى مستعمراتها، تصبح مستعمراتها في أفريقيا متراصة متصلة بعضها ببعض، كجدار منيع، يخطّ القارة من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ويقف سدّاً منيعاً في وجه منافسي إنجلترا من الدول الاستعمارية الأخرى في القارة. ومن ثمّ خطّط الإنجليز لاستعمار يدوم أبداً، وتحويل مصر إلى مستعمرة بريطانية ضمن الإمبراطورية البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس.

ثانياً: حاول الاستعمار الإنجليزي أن يخدع الشعب المصري ويقنعه بأنّه ما جاء إلّا من أجل عمل حضاري وإنساني يهدف إلى ترقية المصريين باعتبار أنّ الجنس الأبيض هو صاحب الحضارة المسؤول عن تمدن الأجناس الملونة، فاستعمل هذا المفهوم المخادع والمناقض تماماً لمدلول الفعل الحقيقي لطمس هوية الشعب المصري الذي وقع تحت سيطرته الاستعمارية، وذلك لتذويب هويته الإسلامية في الفكر الغربي بصفته هو الفكر العالمي المسيطر، وذلك بهدف أن يفقد المصريين هويتهم ويسقطون تابعين للثقافة الغربية.

ثالثاً: استخدم المستعمر الإنجليزي كافة السبل التي تمكّنه من بسط سلطانه وتمديد فترة احتلاله لمصر حتى يتسنى له استنزاف خيراتها واستغلال ثرواتها، ولا مانع من تحويلها إلى أمة تابعة له في ثقافته وفكره ولغته ودينه، فتظلّ أبد الدهر منصاعة له محتاجة إليه لا سبيل لها بالانفكاك عنه؛ ولذلك كانت مسألة طمس الهوية الوطنية شغله الشاغل وهمّه الأول، حيث إنها السبيل المناسب لتحقيق كلّ مطامعه وأهدافه الاستعمارية.

رابعاً: عمل المستعمر الإنجليزي على طمس المكونات الرئيسية للهوية العربية

الإسلامية المتمثلة في: اللغة العربية، والدين الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية؛ أما اللغة فعمل على تغييرها إلى لغة غريبة تمهيداً لتحويل الشعوب العربية إلى لغته الأصلية، فراح يشيع أنّ اللغة العربية لغة صعبة كثيرة القواعد لا تفي مفرداتها بمتطلبات النهضة العلمية الحديثة. ومن ثمّ يجب التخلّي عنها والتمسك بلهجات الشعوب العامية، وإلغاء قواعدها النحوية، واستبدال الخطّ اللاتيني بخطها العربي. أمّا الدين فقد أحاطوه بموجات التشكيك وأرجعوا كل أسباب التخلف الذي عمّ بلاد المسلمين إليه. بل إنهم أشاعوا أنّه يغذي النزعات العدائية بين الشعوب، وهو المنع الأول لكافة الأعمال الإرهابية والعدائية في العالم. أمّا الثقافة وهي الوعاء الأكبر الذي يحمل الهوية الوطنية من حيث إنّها تقوم على دعامتَي اللغة والدين الإسلامي فقد نالت النصيب الأكبر من حملات النقض والهدم، فوجّهت إليها عمليات الغزو الفكري، وحملات التبشير، وحركات الاستشراق. وهكذا كانت خطة المستعمر الإنجليزي تقوم على طمس الهوية العربية الإسلامية للمصريين بما فيها من خداع وتضليل وتحريف وتشويه لحقائق الأمور. ترمي في النهاية إلى مسخ ونسخ وتشويه هويتنا العربية الإسلامية لتتأبد تبعيتنا الحضارية للغرب ونفقد كل هويّة مميّزة.

خامساً: جرد الاستعمار الإنجليزي مصر من جميع مواطن قوتها؛ فالجيش قد أضعف وأُنقص عدده وأضعف قدرته، والمدارس الحربية أُغلقت إلّا واحدة من أصل تسع، والتعليم أصبح لطائفة قليلة جداً من أبناء القادرين، وقُضي على الأسطول البحري وبيعت سفنه وما يتبعها من ورش ومعامل وأحواض عائمة وغير ذلك. وأُغلقت المصانع، وبالغ الإنجليز في ترديد مقولة إنّ مصر بلد زراعيّ ولا يمكن أن تكون صناعية في يوم من الأيام. وبالرغم من النهضة الزراعية التي شهدتها مصر أثناء الاحتلال الإنجليزي، إلّا إنّها كانت لصالح المستعمر فقط، فتكدّست الديون على الأهالي وأصبحت أغلب أراضي مصر مرهونة لدى بنوك التسليف والمرابين الذين انتشروا في ربوع مصر انتشار النار في الهشيم، فأصبحوا كالجراد الذي يأكل الأخضر واليابس. وانحطّت الأخلاق فانتشر شرب الخمر والمسكرات، وتناثرت نوادي ألعاب الميسر والنوادي الليلية بما فيها من إباحية وانحلال برعاية الاحتلال ورجاله في كل مدينة وبندر. وكانت هذه من أهمّ أدوات الاستعمار التي يستعملها في القضاء على كيان المجتمع وهويته.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية والمترجمة إلى العربية

١. إبراهيم، شحاتة عيسى، الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٥م.
٢. بن نبي، مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الجزائر/ دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٩٨٨م.
٣. التويجري، عبد العزيز بن عثمان، مقدمة كتاب: محمد فاروق النبهان، الاستشراق - تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، ٢٠١٢م.
٤. الجميعي، عبد المنعم، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
٥. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٨٣.
٦. حنفي، حسن، الهوية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠١٢م.
٧. خالد، مصطفى وفروخ، عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، المكتبة العصرية، ط٣، د.ت.
٨. زكريا سعيد، نفوسة، تاريخ الدعوة إلى العامية وأثارها في مصر، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، ط١، ١٩٦٤م.
٩. سعيد، عبد الستار فتح الله، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، ١٩٨٩م.
١٠. سلامة، جرجس، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢م)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٦م.
١١. شعراوي، هدى، مذكرات هدى شعراوي، القاهرة، كلمات للترجمة والنشر، ٢٠١٣م.
١٢. عبد الملك، أنور، نهضة مصر - تكون الفكر والأيدولوجية في نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥- ١٨٩٢م)، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١م.

١٣. عمارة، محمّد، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، القاهرة، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، د.ت.
١٤. عمر، عمر عبد العزيز، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩م)، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م.
١٥. فهمي، عبد العزيز، تيسير الكتابة العربية، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ١٩٤٦م.
١٦. القوصي، عطية وآخرون، الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، القاهرة، وزارة التربية والتعليم، ٢٠١١-٢٠١٢م.
١٧. كشك، محمّد جلال، قراءة في فكر التبعية، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ط ١، ١٩٩٤م.
١٨. معاليقي، منذر، الاستشراق في الميزان، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٧م.
١٩. موسى، سلامة، البلاغة العصرية واللغة العربية، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ت.
٢٠. _____، اليوم والغد، القاهرة، سلامة موسى للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٢٨م.
٢١. _____، ما النهضة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.
٢٢. ميكشيللي، أليكس، الهوية، ترجمة: علي وطفة، دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعة، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٣م.
٢٣. نصار، عصمت، فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤م.

ثانياً: المراجع الإلكترونية

١. صالح، سليمان، قصة الهوية التي حاول الإنجليز فرضها على مصر...!، مقال إلكتروني منشور بتاريخ ٢٦/٣/٢٠٢٤، وتم الدخول عليه في ١٢/٩/٢٠٢٤، على الرابط التالي:
<https://www.ajnet.me/blogs/202426/3//%D9%82%D8%B5%D8%A9->
٢. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستشراق - الاستعمار، كتاب إلكتروني على الرابط التالي:

<http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?7048->